



.. قدّر أـ أن تطوى سراائر الخلق في هذا العالم، ولا شكـ أنـ في تقديره لطفاـ، وفي لطفه جـلـ وعلا حـكـمة وتقـدـيراـ. تصوـروا مـعـي أـنـ لو هـبـيـئـ للإـنسـانـ أـنـ يـنـفـذـ إـلـى دـخـيـلـةـ الذـاسـ، وـيـخـبـرـ ما اـنـطـوـتـ عـلـيـهـ ذـوـاتـ أـنـفـسـهـمـ مـنـ الـأـفـكـارـ وـالـأـسـرـارـ، إـذـاـ لـعـرـفـ عـنـهـاـ الـعـجـابـ الـعـجـابـ، وـاـبـيـهـ فـوـدـيـهـ فـيـ غـرـةـ الشـيـابـ!ـ الذـاسـ، وـماـ أـدـرـاكـ ماـ الذـاسـ!ـ بـحـرـ لـجـيـ الطـبـاعـ، جـبـلـةـ مـنـ التـنـوـعـ وـالـتـنـاقـضـ، مـتـاهـةـ مـعـقـدـةـ يـسـتـحـيلـ الـخـرـوجـ مـنـ أـنـفـاـقـهـ، أـحـجـيـةـ يـنـوـءـ اللـبـبـ بـحـلـهـاـ.ـ أـلـزـمـتـنـيـ الـحـيـاةـ مـخـالـطـةـ الذـاسـ بـحـكـمـ الذـوـعـ وـالـصـرـورـةـ، وـقـضـتـ الـلـابـدـيـةـ بـنـجـ وـجـهـيـ بـيـنـ الـوـجـوهـ، وـنـفـسـيـ بـيـنـ الذـفـوسـ، عـلـنـيـ أـنـظـرـ فـيـ مـرـآـةـ نـفـسـيـ شـكـلـ وـجـهـيـ، أـوـ أـضـيـعـ بـنـجـ وـجـهـيـ بـيـنـ الـوـجـوهـ!ـ فـيـ دـوـرـةـ الـمـعـرـفـةـ وـجـلـاءـ الذـاتـ عـاـنـيـتـ وـعـوـرـةـ الـتـجـارـبـ، نـجـحتـ قـلـيلـاـ وـفـشـلتـ كـثـيرـاـ، تـأـبـطـتـ الصـخـورـ الـمـقـدـعـةـ بـالـعـشـبـ لـكـنـ قـدـمـيـ اـنـزـلـقـتـ بـقـوـةـ التـيـارـ، وـأـلـفـيـتـنـيـ فـيـ الـيـمـ مـبـدـلاـ بـالـخـجلـ.ـ تـعـذـرـتـ بـالـمـشـتـهـيـاتـ طـنـداـ بـأـنـ الـأـنـاـ حـصـالـةـ الرـغـباتـ، وـمـضـيـتـ فـيـ أـكـثـرـ الـأـحـيـانـ وـاحـدـاـ مـنـ الذـاسـ، عـدـداـ مـنـ الـأـعـدـادـ!ـ فـيـ كـتـابـ الـحـقـيقـةـ قـرـأتـ الـأـنـاـ، وـبـالـكـتـابـ عـيـنـهـ أـقـرـأـ الذـاسـ!ـ أـسـيـرـ فـيـ زـمـنـ الـتـلـوـنـ فـأـجـدـ فـلـانـاـ يـعـبـدـ أـ

مياومة، وبعد الدّوام أو قبله ينحني لعبادة الأصنام !.. أحوال في الشوارع فأرى تقوى الوجوه، ولا أتحسّس تقوى القلوب، أطرب لذكر الله تعالى بقامات المآذن، وأحنّ إلى تعظيمه سلوكاً وامتثالاً. أرى النّاس يتجمّلون الزهادة والعبادة، وعلى اعتاب بيوتهم ومعاً بهم يتضوّع الفقراء جوعاً ويتجزّعون بؤساً.. أسمع تمجيد الحرية على ألسنتهم، وأرقبهم عبيداً على أبواب سادتهم يتوسّلون حقوقهم، ويستجدون أرزاً قهم، ويسبّحون بحمد طلامهم .. أسمع رنين ضحكاً لهم، فأخبُرها تهكّماً بالضعفاء، وازدراءً بذوي الذّقص والعاهات، أو تقمّص كبراء.. أخشى لأنين دموعهم منتظراً رياح الفعل تهباً من رحم المعاناة، فلا أرى الحزن إلا كرّة المأساة.. أنشد البر والإحسان فيهم، أسفًا فالبر دونه ماء الكرامة عندهم، والإحسان مُثمن والأعراض أثمان!.. أطلب الصدق في نادي التّقاة، فإذا الكذب ملح الرجال تفاحراً، ومنجاًة من سطوة الحقّ الزلال. تصم أذني عبارات التملّق والتندّع والتّجمّل، وليتها لم تخفي خلفها المكيدة والحقيقة والمداراة، وأقول أشيح عنها وأستظلّ من لهبها فَيَءِ الْبَيْوَت علّ الروح تصطلي دفء الحقيقة . وحين دخلت إحداها استقبلني ملاك الوحي بالمعوذتين والإخلاص، وأشرقت بوجهي آية الكرسي، وتبسّمت روحى لأسماء الأئمة والصالحين، فخلتُ نفسي في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، إِلَّا أرْهَه خاب ظنّي بعد هنيهة، حين انفلتت الألسن من عقالها كالسباع الجارحة فلم ترك حرمة إِلَّا انتهكتها، أو سُمعة إِلَّا شوّهتها، أو مستورة إِلَّا أعلنتها، كل ذلك في حضرة الآيات والذّذر . ضفت بهذا النفاق هارباً إلى حيث يسمّيني النّاس معتزلاً، وما أروع العزلة إن كان بها جلاء البصيرة، وتهذيب الرّوح، وترويض الذّفس، واكتساب الأنسنة!..